

الأغنية التونسية أمام تحدي استعادة جمهورها بعد سنوات من الانتكاسة

عودة مهرجان الأغنية فرصة لكسر هيمنة الأغاني الشعبية والراب



تشكل عودة مهرجان الأغنية التونسية، المقرر إجراؤه في مارس القادم بعد انقطاع دام ثلاثة عشر عاما، فرصة لإحياء الأغنية التونسية وتصحيح مسارها، في ظل ما عانتها من انتكاسة على مدى سنوات طويلة بسبب تراجع الإنتاج مقابل اكتساح المطربين العرب للمشهد الفني. ويؤكد متابعون أن الأغنية التونسية تواجه تحدي استعادة جمهورها في ظل ما تلاقيه الأغاني الفلكلورية والراب من رواج شعبي كبير.

أمينة جبران
صحافية تونسية

تونس - تستعد تونس لإقامة الدورة العشرين من "مهرجان الأغنية" بعد انقطاع دام ثلاثة عشر عاما، فيما يعلق الفنانون أمالا كبيرة على أن يعيد هذا المهرجان المجد للأغنية التونسية التي لم تعد تلاقى رواجاً وإقبالاً جماهيريين في ظل هيمنة الأغاني الفلكلورية والراب، على المشهد الفني.

مثلت سنوات الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي العصر الذهبي للأغنية التونسية، موسيقيا وجماهيريا، بشهادة النقاد المحليين والدوليين، حيث شكّلت تلك الفترة انطلاقة لعدد من الفنانين نحو الشهرة العريضة.

لكنها اليوم تواجه تحدي إعادة الوهج السابق بنفس الروح الإبداعية، في زمن تغير فيه الذوق العام ولم يعد الجمهور هو جمهور الراديو أو التلفزيون، مع تحوله نحو وسائل إعلامية جديدة، وهي وسائل التواصل الاجتماعي التي منحتها فرصة اكتشاف الموسيقى العالمية وأنماط فنية أخرى. ويراي المتابعين، فإن الأغنية التونسية وتحديدًا في نبطها الوترية المتكزّمة عاشت انتكاسة خلال السنوات الأخيرة ومازالت، بسبب أزمة المحتوى والإنتاج، إضافة إلى ضعف التمويل الحكومي للأششطة الثقافية. لكن المشكلة الأبرز حسب هؤلاء، تتمثل في صعوبات التسويق بسبب تغييرها في وسائل الإعلام المحلية التي تفضل تسويق أغاني تحظى بمتابعة شعبية، حتى تتمكن من الحصول على الدعاية ومرابيح مالية.



ثمانينات القرن الماضي
وتسعيناته مثلت العصر
الذهبي للأغنية التونسية

وعلى غرار ما تعانیه من تهيمش محلي، يواجه المطرب التونسي منافسة المطربين العرب، ولطالما انتقد الفنانون تغيبهم في المهرجانات الكبرى مثل "مهرجان قرطاج" وتعويضهم بنجوم الصف الأول في الشرق، في خطوة أثارت استياءهم وعمقت متاعبهم.

ويعتقد النقيب السابق للفنانين مقداد السهيلي في حديثه لـ"العرب" أن "اضمحلال الأغنية التونسية مسؤولية مشتركة كما تتحمل الدولة المسؤولية في ذلك". وتابع بالقول "الأغنية تعبير وفن وإحساس وتهذيب ذوق.. وكل هذا من مهام الدولة وعلى عاتقها مسؤولية تهذيب الذوق العام".

وشبه السهيلي الانتكاسة التي تمر بها الأغنية التونسية بالنكسة الصحية التي تعصف بالبلاد وكل العالم، قائلا "نعيش كورونا موسيقية.. فيما لا تبدو الإجراءات الحكومية كافية لتطبيق هذا الوباء.. هكذا هو حال الأغنية التونسية".

ويقول إن المشهد الفني مريض كحال الدولة اليوم التي تعاني صعوبات في جميع الأصعدة، لكن "ما فاقم أزمة قطاع الثقافة أنه في آخر سلم الاهتمامات دائما، في حين يجب أن يكون هناك وعي بأن الفن صناعة ثقيلة ليس فقط للرفاهية".

ولا يرى السهيلي أن الشهرة الواسعة لفن الراب وراء تراجع الأغنية المتكزّمة اليوم، بل على العكس يرى أن الإقصاء غير محبذ وغير وارد، وفي اعتقاده فإن الإشكالية أعمق حيث أن "الدولة أقصت الفنانين وفتحت الباب أمام فن الراب باعتباره فنا فوريا"، وهو حسب تقديره "خطأ كبير".

ومع ذلك، وعلى الرغم من الصعوبات، يعتقد القائمون على مهرجان الأغنية أنه بالوسع إنقاذ الأغنية التونسية، حيث ستشكل الدورة المرتقبة من المهرجان فرصة لمصالحة الجمهور مع موسيقاه وإعادة التعريف بالهوية الموسيقية، كما ستخلق حركة في المجتمع الموسيقي والفني.

دورة التحدي

بحسب ما أعلنه منظمو المهرجان في مؤتمر صحفي الأسبوع الماضي، من المقرر أن تنطلق فعاليات مهرجان الأغنية التونسية في دورته العشرين، في 30 مارس وتستمر حتى 3 أبريل المقبل. والمسابقات الرسمية للمهرجان تتمثل في الأغنية الوترية، والإبداع الحر و"منور صمادح" (شاعر/ 1931 - 1998) للأغنية المتكزّمة، وأحسن أغنية مصورة - فيديو كليپ.

واعتبر مدير الدورة شكري بوزيان، في تصريحات لوسائل إعلام محلية، أن "الدورة العشرين هي دورة التحدي لاستعادة مجد الأغنية التونسية من جهة وتطوير مضامين مهرجاناتها من جهة أخرى"، لافتا إلى أن "هذه الدورة ستكون بمثابة فرصة لاكتشاف وجوه جديدة موهوبة في ميادين الشعر والأحان والغناء".

وحسب بوزيان، بدأ هذا المهرجان العريق منذ ستينيات القرن الماضي، لكنه توقف عن التنظيم لمدة 13 سنة، نظرا لعدم وجود أغان تونسية جديدة. وأشار إلى أن "أغلب الفنانين في الوقت الراهن أصبحوا يعتمدون على إعادة الأغاني التراثية والفلكلورية (الشعبية)". وراى أن الأغنية التونسية

لم تجد فضاءا ليتنافس فيه الفنانون التونسيون ويقدموا أعمالهم الإبداعية، لذلك كانت عودة هذا المهرجان ملحة. ومن أهداف التظاهرة، إعادة الثقة والمصالحة بين الفنان والجمهور، كما ستعمل على الانفتاح على جميع الأنماط والتعبيرات الموسيقية بما في ذلك فن "الراب"، وكذلك الانفتاح على كل الجهات والأجيال من خلال بعث 4 لجان جهوية تشرف على اختيار الترشيحات وتضمن تمثيل مواهب جل الجهات دون استثناء، سواء في الأداء أو الشعر أو التلحين. ويشكل جذب الفئة الشابة من أهم التحديات بالنسبة إلى رواد الموسيقى في البلاد، خاصة وأن فن الراب بلغته البسيطة وإيقاعاته الصاخبة، استطاع أن يستحوذ على مشاعر وعقول الشباب.



أغاني الراب تحظى بمتابعة كبيرة لدى الأوساط الشبابية، وهو ما تعكسه نسب المشاهدة العالية على موقع يوتيوب

وتعد الفنانة الشابة روضة عبدالله من المشاركات في المسابقة الرسمية لمهرجان الأغنية التونسية، وهي من الجيل الجديد من الفنانين التلاقي خطواتها الفنية استحسن الجمهور. وسبق أن أحرزت على جائزة "أفضل عرض تونسي" في الدورة الثالثة لأيام قرطاج الموسيقية في عام 2016.

ويقول فنانون إن وزارة الثقافة باتت منحازة إلى هذا النوع من الفن، خاصة أعقاب اندلاع ثورة يناير، تماشيا مع رغبة الشارع الذي يرى فيه تعبيرا عن مشاغله، فيما تم تهيمش الأغنية والهوية الموسيقية الحقيقية. وتحظى أغاني الراب بمتابعة كبيرة وهو ما تعكسه نسب المشاهدة العالية على موقع يوتيوب، ويقول المتابعون إن كلماتها الجريئة التي تعري واقع الفقراء والمظلومين والتي تحمل روح الغليان الاجتماعي وراء نجاحها الكبير.

إضافة إلى ذلك، تستحوذ الأغاني الفلكلورية والشعبية على اهتمام الجمهور التونسي، وهو ما تكتسفه درجة الإقبال على هذا النوع من الفن في المهرجانات، غير أنها متهمه كحال دول عديدة في المنطقة العربية بالانحدار بالذوق العام بسبب نوعية الكلمات والموسيقى التي تختارها، وهي برأي غالبية النقاد نوع من "الموسيقى الهابطة" التي زادت من متاعب القطاع الفني.

ويعتقد القائمون على المهرجان أن مجرد انعقاده في هذه الظروف الصحية الناجمة عن انتشار الوباء يشكل نقطة ضوء؛ نظرا لإحيائه الحركة الثقافية بعد توقف المهرجانات لأشهر طويلة بسبب قيود التنقل، كما أنه سيشكل فرصة لإعادة الإيمان بالأغنية التونسية المتكزّمة التي تطرح العديد من القضايا دون التركيز على المحتوى السياسي أو العاطفي.

ويؤكد هؤلاء أن الدورة المرتقبة ستقدم تصورا جديدا قائما على الانفتاح والتجديد، حيث ستكون الأنماط الموسيقية والقوالب الغنائية حاضرة بشرط توفرها على الجمالية الإبداعية والتقنية.

وتعد الفنانة الشابة روضة عبدالله من المشاركات في المسابقة الرسمية لمهرجان الأغنية التونسية، وهي من الجيل الجديد من الفنانين التلاقي خطواتها الفنية استحسن الجمهور. وسبق أن أحرزت على جائزة "أفضل عرض تونسي" في الدورة الثالثة لأيام قرطاج الموسيقية في عام 2016. وأعربت عبدالله في حديثها لـ"العرب" عن سعادتها بعودة مهرجان عريق مثل مهرجان الأغنية الذي تراه فرصة للقاء المبدعين وسماع أغنية تونسية والتعريف على مواهب جديدة، ما من شأنه أن يحدث حركة

فنية، لافتة إلى أن "جميع المهرجانات يجب أن تعمل على خدمة الأغنية التونسية دون الاقتصار على مهرجان بعينه". وتعتمد أن أسباب تراجع الأغنية التونسية ناجمة عن تغييرها الإعلامي أساسا. كما أن غياب مشروع ثقافي وعدم الرهان على الثقافة والأغنية التونسية، عمقا الأزمة.

وتقول "الإنتاج موجود والإبداع كذلك، لكن إعلاميا الأغنية التونسية مغيبة، يجب أن نرى كل الأشكال الموسيقية في الإعلام ونفتح على كل التجارب الفنية". وتشرح عبدالله إلى ضرورة وجود إرادة سياسية كاملة حتى تكون الأغنية التونسية موجودة وتفرض نفسها على المشهد الفني.

ويرى متابعون أن المشهد الفني في تونس يعاني التهميش بسبب الموازنة المالية المحدودة لوزارة الثقافة، كما تآثر بسبب الأوضاع السياسية الغير مستقرة منذ اندلاع ثورة يناير وبسبب ما تعيشه البلاد من مخاض انتقالي، وهو ما القى بظلاله على الإنتاج الموسيقي الذي يحتاج الدعم والدعاية والتسويق.

وتلقت عبدالله بالقول "المشهد السياسي طغى على المشهد الفني دون تقديم مشاريع فنية للبلاد". وتؤكد أن الأغنية التونسية يجب أن تكون حاضرة باعتبارها من ثوابت الهوية الوطنية، وأن الفنان يجب أن يواصل مشواره وخطاه بثبات وأن يرسم له خطاه موسيقاه ثم يسعى للإنتاج والتسويق والترويج لأعماله.

عائق تسويقي

على غرار تراجعها شعبيا، وعدم وضوح الإستراتيجية الثقافية لمعالجة نقائص المشهد الموسيقي في تونس، يرى خبراء ومتابعون أن الأغنية التونسية لم تكن مستعدة للمتغيرات التي رافقت الفن عالميا، مع انفتاحه على التكنولوجيا وتسويقه على وسائل التواصل الاجتماعي، ليقع بذلك تجاوز الطرق التقليدية.

ويؤكد هؤلاء على وجود صعوبات في تسويق الأغنية التونسية وأن المشكلة ليست في المحتوى الإبداعي. وأوضح المنسق الفني لمهرجان الأغنية حاتم القيزاني، وهو شاعر

إرث فني كبير

تونسي قام بتأليف أشهر الأغاني التونسية، في حديثه لـ"العرب" أن مهرجان الأغنية سبيل من السبل التي تسعى لإحياء الأغنية التونسية من جديد وتصحيح مسارها. لافتا إلى أن المشهد الغنائي لم يكن مؤهلا لبعض المتغيرات، وما فاقم الأزمة غياب شركات الإنتاج التي كان يتراوح عددها بين 12 شركة إنتاج.

ويتسق رأي القيزاني مع رأي كثيرين، فالإعلام المحلي يتحمل مسؤوليته في تغيب الأغنية التونسية على رغم أن عددها بات أكبر من فترة الثمانينات التي راھنت على الأغنية بصفة عامة التواضع الوسائل الإعلامية.



ويقول "كنا نتوقع أن المحطات الإعلامية حين تتكاثر ستخدم مصلحة الفن التونسي، لكن أغلبها مجرد دكاكين إعلامية غابتها تجارياً أكثر منها أنها تحمي وتدعم الثقافة بصفة عامة والمشهد الغنائي بصفة خاصة".

وحسب القيزاني، ما زاد من الصعوبات، أن المشهد الموسيقي التونسي لم يكن مؤهلا لظهور متغيرات مثل اليوتيوب وشبكات التواصل الاجتماعي في ظل عدم وجود قناة مختصة لبث الأغاني التونسية، في حين تركز بقية القنوات على الأغاني الشترقية.

ويؤكد أن العائق الأساسي هو عائق تسويقي. ويشير "إذا غابت أرضية التسويق فسيؤثر ذلك على النسق الإنتاجي للمبدعين". وخلص بالقول "أعتبر أن المسألة تسويقية تنظيمية أساسا وليست إبداعية".